القصائد

بقلم رفيق خوري

* * *

اذا كان الشعرالكلاسيكي مصابا بأمراض الشيخوخة ، فان الشعر الحديث يحمل في الكثير من نماذجه امراض الطفولة !

واذا كانت امراض الشيخوخة هي قدر الشعر القديم الذي مات منذ نهاية العصر العباسي ولم يدفن حتى الان ، فليس من المحتم ان يصاب الشعر الحديث بالشلل !

وكما ان الشعراء الذين ما زالوا يكتبون الشعر القديم يسيئون لهذا الشعر، لانهم بضجيجهم المفتعل يسدلون الستار على حياة ذلك الشعر ، ونماذجه الجيدة في عصور شبابه ، ويتركون الناس ينظرون الى ذلك الشعر عبر النماذج الميتة التي ما تزال ترفض ان تنزل الى القبر، وعبر الاوراق الصفراء التي تصفعها رياح الخريف على الارصفة ، ومع ذلك تعاند القدر وتقول : انا الربيع ..

كذلك يسيء بعض الشعراء الحديثين الى الشعر الحديث حينما يعرضونه – وهو طفل – لمغامرات تافهة ويقذفونه في صحراء من الملح بلا زاد ولا تجربة مما يجعله يصاب بالامراض الكثيرة التي يعاني منها.

ولست ادعي هنا انني قادر على وضع اصبع توما على كل جراح الشعر الحديث ، ولكنني احاول – مجرد محاولة – ان ألمح الى هذه الامراض قبل انادخل الى محراب قصائد العدد الماضي.

أول امراض الشعر الحديث « مرض الطفولة اليساري » ، وقد يعترض البعض على اساس ان هذا عنوان لكتاب شهير كتبه لينين، وحاول ان يشرح مرض الطفولة اليساري فيالحركة الاشتراكية ، وردي ان الطفولة اليسارية ليست مرضا خاصا بالاشتراكية فان الشعراء معرضون للاصابة بهذا المرض ، فهم بحجة الرفض والنقاء الجليدي و « الولادة من فوق » كما جاء في الانجيل ، لا يرفضون التراث فقط، بل يرفضون الواقع ويتخيلون ان الشعر العالمي هو الشعر الذي لا لون له ولا هوية ..

نحن نريد ان نكون شعراء عالميين .. حسنا ! ولكن علينا فيالبداية ان نكون شعراء عربا وان نحمل روح الامة العربية وتوثبها ، ونكهةمناخها ونمزق أرحامها عن الوليد الجديد .

القفز اذن فوق الواقع ، فوق الحاضر ، فوق الذات لا يؤدي الا الى الفراغ واللاشيء !

المرض الثاني الذي يعاني منه الشعر الحديث هو ضجيج الالفاظ واقتناصها من الكتب الفلسفية ورشقها في القصيدة كيفما اتفق بحيث لا يعبر الشاعر عن السأم مثلا بتصوير الحالة التي يمر بها من يعاني السأم وبتصوير اصطدام هذا الاحساس مع الواقع ومعاناته لهذا الاصطدام ، بل يقول فورا : اني احس بالسأم .. ولذلك نصطدم في معظم نماذج الشعر الحديث بالالفاظ لا بالصور، وبالبديهيات لا بالتجارب فالغثيان والقلق والتوتر والتلوث والسقوط والهزيمة والنفي .. كلهذه المعاني تتحول الى مجرد الفاظ تضج في الشعر الحديث ، تضج كما كانت الالفاظ تضج في الشعر الرومانتيكي . نفس المرض اذن. الشعر الرومانتيكي ضجيج الفاظ جميلة كالغروب والالم والفراشات والورد، والبنفسج ، والشعر الحديث ضجيج الفاظ غريبة ، وحشية !

كان علي محمود طه مثلا يملأ قصيدته بهذا الضجيج من الكلمات المنمقة « عروس البحر ..حلم الخيال .. عيد الكرنفال .. » ويخلطها خلطا عجيبا غريبا بحيث ينسيك جمال اللفظ ضحالة المعنى . أما بعض الشعراء الحديثين فيعانون عقدة الالفاظ الفلسفية ، ولذلك يحشرونها بمناسبة وبلا مناسبة في قصائدهم ليقال على الاقل « انهم مثقفون ».

يقول كولن ويلسون : ان الفنان العظيم لا يكون مفكرا ، والمفكر العظيم لا يكون فنانا .

ولا اريد ان اقول ان الشعر يجب ان يبتعد عن الفكر ، ولكنني اشدد على ان الصورة الشعرية ، والتعبير الشعري هما ميزة الشعر ، وان الفكرة التي لا تستطيع ان تجد لها عند الشاعر تعبيرا شعريا،لا فلسفيا مجردا ، تظل غريبة عن الشعر مهما كانت قيمتها الفكرية .

نحن نلوم المتنبي وابا العلاء مثلا لانهما يصدمان القارىء بالحكمة ، او الفكرة دون أي مبرر ، ودون ان تأخذ هذه الفكرة – غالبا – الشكل الشعري ولكننا نعود الى اقتراف هذه الغلطة .

نلوم المتنبي لانه يأخذ افكار ارسطو او الرواقيين ويضعها في شعر مباشر ، ثم نأخذ افكار هيدجر او كيركفارد ونيتشه مثلا ، ونضعها في شعر اكثر مباشرة .

الخلاف اذن ليس على كون الشاعر نبيا أم فيلسوفا أم مغنيا..

ليكن الشاعر نبيا ، ليتخيل نفسه فيلسوفا ، أو ليعتبر نفسه مغنيا للجمال والحزن .. ولكن يجب ألا ينسى انه شاعر قبل كل شيء. حينما يتذكر انه شاعر اولا تحلالمشكلة .

المشكلة اذن ليستصراعا بين الفلسفة والجمال بل بين الشعر واللاشعر .

ان أهم أخطاء الرسم الحديث مثلا ان الرسامين اهتموا بالفكرة اكثر من أسلوب التعبير عنها .

اما المرض الثالث من امراض الشعر الحديث فهو النثرية.

الشعر الحديث كله يقترب من النثر . ذلك امر معروف . لكن قصيدة النثر نفسها تحاول ان تهرب من النثرية . انها تجرب الغرابة والدهشة ، والمفاجأة ومع ذلك تسقط .

وعلى الشعر الحديث ان يعرف كيف يضع لنفسه ابدا علامة مميزة. ان يصب في عروقه حيوية ليست في النثر ، ووحدة عضوية يفتقدها النثر ، وصورة باهرة ترفع الواقع الى مستوى الفن ولا تهبط بالفن الى مستوى الواقع . وان يفسل الصدأ عنه بالموسيقى.

هل تراني بعد هذا « الاعتراف » أصبحت قادرا على الدخولالى هيكل القصائد ونيل « بركة » الكهنة ؟

لنجرب !

ابنة الظلمات – محي الدين فارس

« من مغامرات بورجوازي » ذلك ما تعلنه القصيدة تحت العنوان.. وهذا البورجوازي هنا متناقض مع نفسه . فهو ينتظر موسما لا تجيء.. وحينما يخيب امله « تنتفض » فيه الكبرياء والرجولة فاذا به يصبعليها بركانا من النعوت السيئة ثم يخبرها في النهاية انه مع فتاة اخرى ... وان قماته قد تركتها على السفح!

والشاعر لم ينفذ الى اعماق المشكلة ، ولا الى انعكاساتها وظلالها

الاخرى .. ولذلك فهو يقدم لنا الصورة بيضاء وسوداء فقط .. ففي القصيدة عاطفة ذات اتجاه واحد .. وخطابية حماسية تدور حول موقف جامد . والقافية تجر الشاعر احيانا الى ما لا يريده .. يقول لها :

« لا تتبعيني لست أول قطة لوثتها ورميتها كالطحلب »

ولا أظن ان للطحلب اية علاقة في الموضوع هنا الى جانب الصورة البعيدة الى الجمالية .

ويقول في مكان اخر :

«في كل عام ينضج العنب الذي يسقي العروق من الرحيق الطيب»

والشطر الاول مأخوذ كله من قصيدة لاليلس ابو شبكة يقول فيها:

« لا تقنطي ان وجدت الكأس فارغة يوما ففي كل عام ينضج العنب »

الا ان الشاعر زاد عليها كلمة « الذي » وبذلك قتل ارتفاعها عن النثرية ذلك الارتفاع الذي حققه ابو شبكة .

بكائية ـ فاروق شوشة

حب قديم يموت .. يموت لدرجة ان ابطاله اذا مروا ببعضهم أو تبادلوا السلام لم يتذكروا شيئا ..

الماضي هنا ليس جثة .. وليس صورة تمر في الذهن ، ولكنه لمحة مدفونة . ولذلك لا يثير أي احساس .

ولكن الشاعر يعود في المقطع الثاني فيهز هذه الصورة ، يهز ابدية هذا النسيان .. فاذا الريح على الباب . الريح تحاول ان تهز الماضي ، الريح لا تصدق ان الماضي يمكن ان يموت بهذه البساطة ولكنها اخيرا تصطدم بالحزن والملل والصمت ..

حتى اذا جاء المقطع الثالث عرفنا ان مأساة هذا الحب كونه لم يرفض ، لم يقاوم ، كونه ظل غريبا .. فهما لم يعرفاه لينكراه .. لينفياه .. ليجعلاه شهيدا .. انه اذن ميت بلا قضية ..

القصيدة جميلة .. تنزع بعض الاحيان الى النثرية ، ولكنها استطاعت ان تعبر عن الفكرة الصغيرة تعبيرا شعريا .

نشيد العودة ـ حسن فتح الباب

« لنرفع الجبين عاليا فانهم يشاهدون
ألوية النصر ترف حرة على حمى العرين
ولنفرش الطريق بالزهور للاباء والبنين
تحية للخالدين من طلائع المناضلين »

ما الفرق بين هذه الابيات وبين اية افتتاحية صحفية ؟

ان المباشرة هي الداء الذي ورثناه عن الشعر القديم ، وهي الداء الذي استشرى اكثر ما استشرى في شعر « النضال » !

أن شعر النضال يجب ان يكف عن ان يكون يافطات ، وشعارات، ينبغي ان يرتفع الى مستوى القضية ، ان يخفق مع قلب الملحمة الكبرى التي يخوضها الشعب ، فلا يكتفي بالوقوف بعيدا عنها والتصفيق لها في سذاجة مفرطة ويسارية طفولية .

اذا كانت قدسية شهادة الجنود في اشرف معركة في اليمن لا تدعونا الا ان نقول : « المجد للشعب العريق يفتدي بروحه حماه
للبعث جيلا بعد جيل يقهر الخوان والطغاه »

فان الفن يظل دون مستوى الشهادة ، في حين يجب ان يرتفع عن مستواها .. يجب ان يستلهمها لا أن يخاطبها .

معظم شعراء « النضال » لا يخرجون عن هذا الطريق ..

تصوير الظلم ثم التأكيد بان النصر قريب .. وذلك بمباشرة، وخطابية تدفعهم الى اجترار نفس المعاني . فقول الشاعر هنا :

« جراحهم تشع في صدورنا الفخار كالوسام »

ورد في اكثر من مئة قصيدة من هذا النوع !

لقد رأينا مالك حداد يتحدث عن ثورة الجزائر وشهدائها بلغة شعرية تبتعد عن الضجيج والغبار واليافطات .. ورأينا ناظم حكمت ، وبول ايلوار وبابلو نيرودا ولوركا يصوغون نضال الشعوب قصائد رائعة تعيش في العروق والقلب لا في الاذن !

ثلاث رسائل الى شهيد ـ هلال ناجي

ان جلال الشهادة الحقيقية وجلال الموت يورقان في حروف القصيدة ويجعلان المرء يقف حائرا .

اخ يتحدث عن شقيقه الملازم الذي استشهد وهو يزحزح ليل الظلم الشعوبي في العراق ..

وعلى الرغم من ان الشاعر هلال ناجي قد اشتهر بقصائده الخطابية والمباشرة فانه نحا في هذه القصيدة منحى جديدا ..

ان عمق المعاناة هو الذي جعل القصيدة تبتعد عن المباشرة، وعمق المعاناة هو الشرط الرئيسي للشعر الحديث وبدونه يصبح هذا الشعر خطابات مملة .

الضوء المخملي ـ عدنان كيلاني

وهذه قصيدة نضالية اخرى .. ولكنها تحاول ان تهرب من الخطابية، دون ان تتمكن من ذلك تماما . انها تريد أن تنسلخ عن التقليد ، ولكنها ما زالت تنسلخ .. أي انها لم تنسلخ تماما .

ولكنها مع ذلك بداية طيبة لتحول طيب .. وان كان المرء يأخذ على الشاعر قوله : « ويحتويني السعال » !!

أو « سأجرح اصنام شعبي بنظرة » .

فان المرء لا يجرح اصنام الشعب بل يكسرها ، لان جرح الشيء معناه الايمان به .. ففي كل الاساطير الدينية وعند المسيحية بشكل خاص يعتبر شرب دم المسيح ايمانا به ولذلك يتناول المسيحيون في الكنيسة لكي يأخذوا القوة من المسيح وليحاربوا الخطيئة .

التلوث والمنفى ـ مصطفى خضر

هذه القصيدة من اجمل قصائد العدد ولا شك .. تلمح منذ بدايتها الفاظ الشاعر خليل حاوي وصوره لا تمسك بخناق الشاعر مصطفى خضر ، بل تعيش في اعماقه بحيث يعبر عن نفسه ، وعن تجربته بواسطتها دون ان يقحمها اقحاما كليا .

بطل القصيدة ينتظر المعجزة .. ينتظر المعجزة رغم انه ملوث ومنفي ، ورغم ايمانه بان النفي لم يعد خصيبا ..

انه يعيش في عالم يزني بكل شيء .. يزني بالكلام .. بالاشارات، بالاهداف .

وتكاد تجيء المعجزة ولكن البطل يحس انها مزورة غريبة ، ثم يحس في السقطة العمياء ان وجه الحبيب سيعود ..

« وجه الحبيب يعود لي وجه الحبيب
عاد الفرات وازغبت آياتنا عبر الصليب
يا بؤرة المنفى البعيد
اني احس الموت والميلاد والابدية السمراء نسغا
في مدى قلبي الوليد
انا الطريد ..
اني احس .. اريد ان احيا اريد » .

والنهاية فيها شيء من الفردية ، ولكن الرجوع الى الذات هو الرجوع الى الاصالة . ان المرء لا يستطيع ان يعود الى الاخرين ليمحو التلوث والنفي . يجب ان يعود اولا الى نفسه لكي يحس بان التلوث قد محي فعلا وساعتها يحس ان النفي قد انتهى وانه يستطيع ان يعود الى الاخرين .

الرجل الرمادي والضفيرة ـ حسن النجمي

تصور هذه القصيدة لحظة انهيار قيمة الحياة في نظر رجل.. رجل فقد طفلة صغيرة .. انها اللحظة التي ينعكس عليها الموت والفقدان.

الان كانت الطفلة معه .. وهي الان تحت التراب !!

انها المأساة الابدية .. ويعيش الرجل ، يشرب .. يبكي ، ولكن هل يستطيع الشرب ان ينقذه من هذا الاحساس ؟ هل يعيد البكاء له الربيع؟

لا شيء .. انه يشعر وكأنه هو الميت ، وكأن الطفلة هي الحياة الوحيدة في الوجود . الوجود كله عدم . كله موت ، والطفلة تتحداه ان يعيش ، ان يحس بجمال الحياة .

القصيدة نموذج طيب رحبذا لو استطاع الشاعر ان يتخلص من النثرية .

رفيق خوري